المشرق

الآداب العربيّة في الشبيبة

خطبة القاها الاب لويس شيخو البسوعي في حلب

طبع الله في قلب الانسان حبّ وطنهِ حتى اضحى من اقدس واجباتهِ. الّا ان بين الاوطان تبايناً واختلافاً فمن ترى يعدل بين احدى القرى الحقيرة التي لا تكاد تفي بشؤون معاش قطينها وأمهات المدن التي لا ينقصها شيء من اسباب الهناء فيتقلّب اهلها على بساط النعمة وفي بحبوحة العيش ورغد الحياة فان كانت تلك تستأسر قلب ساكنها ويحنُّ لها جنان قاطنهـا فما قولنا عن هذه مع وفرة مرافقها وكثرة خيراتها

وان وجّهنا النظر الى شبانكم ادركنا ما رسخ في قلب كل حلبيّ من الحبّ لمسقط رأسهِ حتى قال بعضهم « انّ الدنيا في عين الحلبي محصورة في حلب لا يرى ولا يحبّ سواها ». والحقّ يقال انّ الله عزّ وجلّ قد خصّ مدينتكم بنعم سابغة وهبات سنيّة قلّما توجد مجتمعةً في بلد واحد. فان اعتبرنا موقع حلب وجدناها في اطراف البريّة كأنها الواش النضر او الجنّة الغناء يحتأُها المسافر برغبة بعد ما اصابهُ في الصحاري القاحلة من العناء او هي في بطحائها كالبكر الحسناء تحدق بهـا رُباها فتضمّ شتاتها وتزين هامتها بينما تبتصبُ في وسطها قلعتُها الحصينة قائمةً في حراستها وتتخلّلها ميـاه قويقها متوقرقة فتسقي بساتينها وتجلّلها بحلّة سندسيّة من ضروب الشجر واصناف البقول والخضر. فكأني بها في عزلتها عن بقيّة المدن السيّد الشريف ذو النخوة والمروّة يستغني في داره العامرة عن غيرهِ من الكرام. وكذلك حلب تتوفّر لديها مآتي الحياة فتستطيع ان تصبر زمناً طويلاً على المجاعة بما يزكو حولها من الغلّات وما يسوم في مراعيها من المواشي وينبع في حدائقها من الاثمار

ويزيد موقعها حسنًا انّها قائمة على مفرق الطرق بين اساكل الشام ونواحي الاناضول وبلاد ما بين النهرين اياها تقصد القوافل وفي ربوعها تحطّ الرحال فاضحت مدّة قرون متوالية سوقًا حافلةً لآسية الغربيّة ورائدةً للتجارة الشرقيّة فضلاً عن طيب سكناها واعتدال هوائها وصفاء اديم سمائها ورقّة طباع اهلها مع توقّد اذهانهم ونشاطهم في الاعمال ما حمل احد الكتبة على القول بان حلب احدى جنّات النعيم. وهذه الخواصّ وغيرها التي انتم في غنًى عن تعدادها جعلت حلب في كل آن من المدن الجليلة التي توجّهت اليها الانظار منذ قديم الادهار مباشرةً بالبابليين والفراعنة والحثّيين قبل المسيح حتى زهت في ايّام الدولة العثمانيّة ايّد الله شوكتها واعزّ سلطتها. وان كانت حلب لم تلعب في كلّ هذه المدّة دورًا مهمًّا في تاريخ السياسة الّا انّ الشعوب كانت تتباهى بمحاسنها وتبني على مفاخرها الآمال الطيّبة

وقد بقي من مآثر تلك الازمنة الغابرة ما يدلّ على مرور اصحابها في الشهباء منها كتابات حجريّة ومنها ابنية جبّاريّة تنطق عن عظم شأنها وسموّ مقامها ولو لم يكن باقيًا منها غير قلعتها الصناعيّة لكفى بها دليلًا على اعتبار القدماء لمركز هذه المدينة ولوفرة مرافقها

ولكن دعنا والقرون الغابرة والآثار الدائرة فانّنا لو اردنا ان نطوف بجاهليها ونخوض غمارها لاتّسع بنا المجال وطال المقال لا سيّما انّ احد كتبة مجلّتنا المشرق في اعداد سنتها الثانية قد خصّ بوصفها مقالتين حسنتين أُحيل الحضور الى مراجعتهما فانّهم يجدون فيهما ما تروقهم مطالعتهُ

ومن ثمّ اني اعدل عن ذكر هذه المآثر القديمة لأرصد هذا الخطاب الى موضوع آخر اقرب منًا عهدًا من شأنه ان يبيّن فضل اسلافكم الحلبيين وما تركوا لكم من الارث الثمين لاسيّما في القرون المتأخرة القريبة من عهدنا اريد تركة معارفهم وادابهم وحبّذا الميراث

*

انّ حياة حلب الادبيّة قد ابتدأت منذ اعصار طويلة فانّها قد جارت سابقًا حواضر المدن في مدارسها وأدبائها وعدد كتبتها المبرّزين ولا اعهدكم نسيتم بني حمدان

الذين شرّفوا الشهباء باعمالهم الخطيرة فحوّلوها بعد زمن قليل الى منتدى الآداب فصارت مقصد الوفود وقبلة الآمال وموسم الادباء وحلبة الشعراء . حتى أنهُ اجتمع في باب سيف الدولة من نوابغ الشعراء وفحول الادب وائمّة العلم ما لم يجتمع بباب كثيرين من العظام وكلّهم رجال فضل يُشار اليهم بالبنان كابي طيّب المتنبي وابي فراس وكشاجم وابن خالويه وابي عبّاس احمد النامي وابي الفرج البيغاء وابي النضر بن نباتة العراقيّ والسريّ بن احمد الموصلي المعروف بالرفّاء وابي علي الفارسي ولكلّ منهم دواوين شعر رائق او كتب شهيرة يتداولها محبّو الآداب ويطبعون بليغ معانيها في صفائح الالباب

فقي صحبة هؤلاء المشاهير لم يعتم الحلبيّون ان ينزلوا ميدان الأدب ويستقوا من مناهل العلوم فتوارثوها ابناً عن اب وابّاً عن جد واخذوا يزاحمون اهل زمانهم ويجارونهم في معارفهم . ففي عهد بني مرداس اشتهر الشاعر ابو الفتح بن ابي الحصينة المعرّي الذي انقطع الى خدمة نصر بن مرداس فجعلهُ اميرًا واعطاهُ ارضًا بحلب عمّها دارًا وزخرفها وكتب عليها :

دارٌ بنيناها وعشنا بها في دعةٍ من آل مرداس
قومٌ محوا بؤسي ولم يتركوا عليَّ في الأيام من باس
قل لذوي الحُسنى ألا هكذا فليفعلنَّ الناسُ بالناس

وفي عهدهم كان ابن القيسراني شرف الدين ابو عبدالله محمّد المخزوميّ الخالدي الحلبيّ احد الشعراء المجيدين ولهُ ديوان شعر مفقود ومما يروى لهُ في مدح خطيب :

شُرح المبرُّ صدرًا لملقيك رحيبا
أترى ضمَّ خطيبًا او ضمّخ طيبا

وطُبع لهُ في لَيدن كتاب جغرافي في الاعلام المنسوبة المتشابهة لفظًا . وفي سنة ٥١٦ (١١٢٢م) فُتحت اوّل مدرسة في حلب وهي المدرسة الزجاجية التي موقعها في مكان مدرسة الآباء الفرنسيسكان حالًا بناها صاحب حلب بدر الدين سليمان ابن ابي الربيع فتقاطر اليها الطلبة من كلّ فجّ وواد

واشتهر في عهد الايوبيين ابو المحاسن ابن شدّاد الذي وُلّي على عهد صلاح الدين عدّة مناصب ثمّ قُلّد في ايام الظاهر بن الناصر قضاء حلب فاعتنى بترتيب

امورها وعمّر فيها المدارس الكثيرة فاشتهرت حلب بسببها وقصدها الادباء من البلاد وحصل بها الترقي . وممّن سار الى حلب في وقته فاستوطنها وتوفي بهـا نظام الدين القرطبيّ الشاعر المعروف بابن خروف فمدح ابن شدّاد . وتعقّب آثار ابن شدّاد كثيرون من الوجوه والاشراف فابتنوا في حلب المدارس التي بلغ عددها ٣٠٠ مدرسة واوقفوا عليها الاوقاف الواسعة حتّى دُعيت حلب « حلب الاوقاف » . وزارها ابن خلكان الشهير واثنى على مفاخرها

وفي غضون هذا القرن الثالث عشر توفي في حلب سنة ١٢٢٩ الجغرافيّ الشهير ياقوت الرومي صاحب معجم البلدان وتآليف عديدة تنبئ ببسطة فضله . واشتهر ايضاً الكاتب المنشئ البليغ عبد المحسن التوخيّ الحلبيّ ألّف في الاخبار والنوادر كتاباً في عشرين مجلّداً ولهُ ديوان شعر وديوان ترسّل . توفي سنة ١٢٤٦ م . ومن مواطنيه ومعاصريه عون الدين سليمان بن عبد المجيد الحلبيّ الشاعر القائل في وصف الخمرة :

سألتُ توماس عمّن كان عاصرَهـا اجاب رمزاً ولم يسمح ببيانِ
وقال أخبرَني شمعونُ بنقلـهُ عن ابن مريم عن موسى بن عمرانِ
باضـا سفرت بالطور مُشرقةً انوارُها فكنَوا عنهـا ببيرانِ
وهي المدامُ التي كانت معتّقـةً من عهد هرمس من قبل ابن كنعانِ
وهي التي عبدتها فارس فكنّى عنها بشمسِ الضحى في قولهِ مانِي

وفي حلب ولد في ذلك القرن بهاء الدين محمّد بن ابراهيم المعروف بابن النحّاس الحلبيّ حجّة اللغويين في زمانه وكان خبيراً بالمنطق والهندسة تقدّمهُ اهل مصر وولّوهُ التدريس في جامع ابن طولون وبالقبّة المنصوريّة . وتفتخر حلب بكونها حصلت مدّة في ذلك العصر على احد ائمّة اللغة الشيخ جمال الدين محمّد ابن مالك صاحب الألفيّة الطائرة الشهرة الذي تكرّر طبعها في بلاد مختلفة ونُقي بنقلها الى الايطاليّة فقيد الآداب المستشرق اريك ڤيتّو فنصل ايطالية في الشهباء طويلاً

وفي هذا الوقت عُرف كمال الدين الحلبيّ الشهير بابن العديم الذي كتب تاريخاً موسّعاً لحلب دعاهُ بغية الطلب في تاريخ حلب وهو معدودٌ كمؤرخ صادق ثبت الرواية بليغ العبارة وكان لا ينقطع عن الشغل حتى في اسفارهِ فاذا سافر جلس في محفّة يحملها بغلان فيكتب ويصنّف كانهُ في مكتبه . توفي سنة ٦٦٠ (١٢٦٢ م) . ولهُ مصنّفات جليلة واشهرها تاريخهُ الذي ادركتهُ المنيّة قبل تبييضهِ وكان في اربعين مجلّداً لكنّهُ

اختصرهُ بكتاب آخر دعاهُ زبدة الطلب في تاريخ حلب وهو الذي ذيَّلهُ علاء الدين ابو الحسن علي الجديني الحلبيّ المعروف بابن خطيب الناصرية المتوفى سنة ٨٤٣ (١٤٣٩م) وسماهُ الدرّ المنتخب في تاريخ حلب. وقد عُني الاوربيُّون بنقل تاريخ كمال الدين الى الافرنسية ونشروا لكثرة فوائده وكان سبقهُ في كتابة تاريخ حلب احدُ الحلبيين اسمهُ يحيى بن ابي جميدة الحلبي المعروف بابن ابي الطي المتوفى سنة ٦٣٠ (١٢٣٣م) وهو اوَّل تاريخ لحلب دعاهُ معادن الذهب في تاريخ حلب وهو مفقود

واشتهر في الادب في مطاري القرن الرابع عشر عالمان من ادباء المسلمين احدهما محمود بن سليمان الحلبي صاحب حسن التوسل في صناعة الترسل المطبوع في مصر ولهُ كتب أُخرى اجاد فيها نظمًا ونثرًا وقد تقدَّم في القاهرة ببلاغتهِ وبديع كتابتهِ وسكونهِ وتواضعهِ وتوفي سنة ٧٢٥ (١٣٢٥ م). اما الآخر فهو الشيخ بدر الدين حسن المعروف بابن حبيب الحلبي وكتابهُ نسيم الصبا شائع بين الادباء طُبع غير مرَّة. ومن تآليفهِ كتاب جهينة الاخبار وتاريخ درَّة الاسلاك في دولة الاتراك. وقد اخذ عليهِ معاصروهُ ملازمة السجع في كتبهِ التاريخيَّة فظهر فيها التصنُّع

وبعد المذكورين بقليل عُرف شمس الدين ابو عبدالله محمَّد بن علي بن ابراهيم بن شدَّاد الحلبيّ صنَّف في اصحاب الشام والجزيرة تأليفًا نفيسًا دعاهُ الاعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة ذكرهُ الحاج خليفا ونسبهُ لابن شدَّاد يوسف بن رافع الحلبي المتوفى سنة ٦٣٢ (١٢٣٥ م)

ولا ازيدكم علمًا ان افدتكم ان ابن شحنة هو احد مواطنيكم. وهما اثنان عُرفا بهذا الاسم ابٌ وابنهُ فالاب هو محمود ابن شحنة الثقفي الحلبيّ صاحب التاريخ المسمَّى بروض المناظر في علم الاوائل والاواخر اختصرهُ من تاريخ ابي الفداء واتمَّهُ الى زمانهِ وهذا التاريخ طُبع على هامش تاريخ الكامل لابن الاثير في بولاق. اما الابن فهو قاضي القضاة محب الدين محمود بن محمود وكان ناظمًا ناثرًا اشاع من مؤلفاتهِ تاريخ مدينة الحاب الذي سمَّاهُ الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حاب. وقد توفي الاب سنة ١٤٠٩ للمسيح وعاش ابنهُ الى سنة ١٤٨٥

*

وكانت العلوم والآداب كسدت نوعًا في ذلك العهد في كلّ انحاء البلاد لكثرة ما

حدث من الحروب بسبب المغول والتتر فرحل كثير من العلماء الى مصر وبلاد المغرب وغيرها . وقد نال حلب بسبب ذلك تأخر فأقفلت بعض مدارسها واكتفى من بقي فيها من المشاهير بدرس الفقه ومتعلقاته كعبد البرّ بن شحنة الحلبيّ المتوفّى سنة ١٥١٥ وابن الشمّاع زين الدين عُمر المتوفّى سنة ١٥٢٩ وقد اطلعنا احد شيوخ المسلمين الادباء على كتاب من خطه في ما رواهُ من الحديث عن الائمّة مع اجازة هؤلاء الائمّة بخطوطهم وكابراهيم بن محمّد الحلبيّ المتوفى سنة ٩٥٦ (١٥٤٩) وبرهان الدين ابراهيم ابن يوسف الحلبي المعروف بابن الحنبلي المتوفّى سنة ١٥٥١ . فلكلّ هؤلاء كتب فقهية وفرائضيّة وتفاسير تُرى حتى اليوم في المكاتب اللاحقة بجوامع حلب . اما العلوم الادبيّة فانّنا لا نعرف ممّن تعاطاها الّا القليل : فمنهم شمس الدين محمّد بن ابراهيم بن يوسف الذي عُرف كابيه بابن الحنبلي ولهُ فضلاً عن التآليف الدينيّة ديوان شعر سمّاهُ « الشراب الشيلي في ديوان ابن الحنبلي » ولهُ ايضاً كتب في الصرف والنحو وكتاب في اعيان حلب وسمهُ بدرّ الحُبَب في تاريخ اعيان حلب وهو غير تاريخه الذي أطلعنا احد افاضل الكهنة على نسخة منهُ واسمهُ في هذه النسخة كتاب الزَّبَد والضَّرَب في تاريخ حلب انتزعهُ من كتاب كمال الدين زبدة الطلب تاريخهُ سنة ٩٥١ هـ (١٥٤٤م) وفي مكتبتنا الشرقيّة في بيروت تاريخ نفيس عزيز الوجود الفّهُ في اواخر القرن السادس عشر احد ادباء المسلمين وهو القاضي ابو محمّد مصطفى بن حسن الحسيني الحلبيّ دعاهُ العَيْلَمَ الزّاخر في اخبار الاوائل والاواخر وهو تاريخ واسع للدُّوَل الاسلاميّة وخصوصاً للدول المتأخرة منها . اما النصارى الحلبيّون فلا نعلم ممّن اشتهر منهم غير يسوعيّ ماروني اسمهُ ابراهيم جرجس أُرسل الى الهند وبلاد الحبشة فمات شهيد النصرانية في مصرّع وكان عالماً بعدّة لغات شرقيّة

بيد انّ هذا التأخر العلميّ الذي ذكرناهُ لم يمدّ اطنابهُ على حلب زمناً طويلاً فهبّت بعد عهد قريب في اهل الشهباء حميّة جديدة ودبّ في قلوبهم حبّ الادب وسوق بهم الى كلّ المساعي الجليلة . فما كادت تسطع انوار القرن السابع عشر حتى صارت حلب حلبةً جرت فيها مذكيات العقول وتسابقت في مجالها الفرسان الفحول فممّن اشتهر في الشهباء من ادباء المسلمين ابن الجزري حسين بن احمد الحلبيّ المولد الذي قصد مشاهير زمانهِ في الشام والعراق فاخذ عنهم وافاد اهل وطنهِ ممّا استفادهُ

من مواردهم . ولهُ ديوان شهير . كانت وفاتهُ في حمـاة سنة ١٦٢٣ . وتوفي بعدهُ بقليل سنة ١٦٣٢ فتح الله بن محمود البيلوني الحلبيّ الذي طاف ايضاً بلاد الاسلام وعاد الى حلب ولهُ كتب دينيَّة وشعر غير قليل من ذلك بيتان ظريفان في النظّارات او العوينات قالها لصديق رآهُ في حمايهـا ثمَّ اضطُرَّ هو الى استعمالها :

رُبَّ صديق عاب نظّارةً يقوى بها الناظرُ من ضعفهِ
وعن قليل صار في امرها يحملها رغماً على انفهِ

وعاصر هذين الاديبين نور الدين علي بن برهان الدين الحلبي صاحب السيرة الحلبية الشهيرة المطبوعة في ثلاثة مجلّدات في مصر ولهُ مؤلفات بديعة في اللغة والادب والشعر . ولهُ رسالة في التصوّف ودخان التبغ . كانت وفاتهُ سنة ١٦٣٤ . وخلف هؤلاء بعد زمن قليل ابراهيم بن ابي اليُسن البتروني الاصل والحلبي المولد وصفهُ المحبّي بكونهِ حسن المحاضرة شاعراً مطبوعاً . وقال انَّ شعرهُ كثير المُلَح والنكت توفّي سنـة ١٠٥٣ هـ (١٦٤٣م) . واشتهر كذلك ابو الوفاء ابن عمر بن عبد الوهّاب العُرضي الحلبي صاحب تاريخ دعاهُ « معادن الذهب في الاعيان المشرّفة بهم حلب » توفي سنـة ١٦٦٠ . واشتهر ايضاً اديبان من احد بيوتات حلب المعتبرة اسم احدهما محمّد بن حسن . . . برزَ في الافتاء وتعاطى الادب نظماً ونثراً توفي سنة ١٦٨٤ م واسم الآخر ابو السعود احمد . . . وكان ابناً لمحمّد السابق ذكرهُ . قال المراديّ : انهُ فاق اهل عصرهِ في رقّة شعرهِ وكان يلازم التدريس فيقصدهُ افاضل حلب . وقد عرفهُ جبرائيل فرحات واخذ عنهُ كما اخذ عن عالم نحوي آخر كان في هذا الزمان وسارت بذكره الركبان وهو الشيخ سليمان النحويّ الذي شهد غير مرَّة لسبق تلميذهِ وضلاعتهِ بالعلوم اللغويَّة . ومِمَّا اطّلعنا عليهِ من آثار ذلك القرن عند بعض الافاضل ديوان شعر لسليمان بن الحسين بن سُنين الشاعر الحلبيّ المتوفّى سنة ١٠٨٧ هـ (١٦٧٦ م)

ها قد حان لنـا ان نذكر ما جرى في اثناء القرن السابع عشر من التقدّم في الآداب بين نصارى الشهباء . وكان الفضل في ذلك للكنيسة الكاثوليكيَّة . فانَّهُ في ذلك العهد دخل الشهباء قوم من علماء الرهبـان الذين وافوا الشرق لخدمة الدين ليضمّوا قواهم الى قوى الطوائف الكاثوليكيَّة ويدعوا المنفصلين الى حجر الكنيسة الرومانيَّة وينعشوا في قلوب الجميع الاريحيَّة لطلب العلوم والآداب . فقدم حلب

في وقت واحد الآباء الكبوشيون والرسلون اليسوعيون ولم يلبث ان أتاها ايضاً الآباء الكرمليتون فكل هؤلاء انضموا انضمام الاخوة الى الآباء الفرنسيسيين الافاضل الذين كانوا سبقوهم الى حلب منذ عهد قديم فقاموا سواء باعمال التبشير واخذوا جميعاً يرعون القطيع الكاثوليكي الصغير الذي طالما كان يرغب في مجيء عملة جُدُد يفلحون كرم الرب

وليس من شأني أن اصف هنا الاعمال الجليلة التي قام بها المرسلون في حلب حتى امكنهم ان ينشئوا ثلاث طوائف كاثوليكية من روم وارمن وسريان نراها اليوم بعد ان كانت كحبة الخردل قد اضحت كشجرة وارفة الظل تأوي الى اغصانها طيور السماء. فمن احبَّ الوقوف على تفاصيل اخبارها عليه بتواريخ هذه الطوائف وكتابات الكرسي الرسولي والرسالات التي حرَّرها هؤلاء المرسلون. وانما غايتي هنا ان ابيّن انَّ هذه النهضة الدينية كانت مصحوبة بنهضة ادبية عظيمة فيلوح للعيان انَّ الكنيسة الرومانية كانت ولم تزل اقوى سند للعلوم والآداب تسعى حيثما دخلت في تعزيز صرح المعارف كما تشيّد صرح الدين المؤسس على الصخرة البطرسية

*

واوّل ما نجدهُ من التآليف النصرانية الحلبية كتبٌ طقسيَّة عُني بكتابتها ملاتيوس كرمة مطران حلب على الروم الملكيين الذي صار بعد ذلك بطريركاً باسم اثنيسيوس وكان ذا معرفة ضليعاً بالعلوم نقل الى العربية رُتب كنيسته كالقنداق والتريودي والساعية من اللغتين اليونانية والسريانية كما افادنا ومن هذه التآليف نسخٌ في مكتبة الروم الملكيين في حلب. وهنا فليُسمح لنا بان نشكر علانية اصحاب السيادة اساقفة الطوائف الكاثوليكية الذين تفضلوا وسمحوا لنا بالنظر في مخطوطات كنائسهم فأمكننا بهذه الواسطة ان نطّلع على قسم كبير من اعمال الاكليروس الشرقيّ وادباء الشهباء والمرسلين اللاتينيين في حلب. فانَّ كثيراً ممَّا نورده في هذه النبذة قد اقتبسناهُ من خزائنهم الكنيسة جازاهم الله خيراً وكذلك نثني على لطف بعض الكهنة الموارنة والسريان والارمن والروم الملكيين والكلدان كما نشكر ادباء المسلمين وافاضل النصارى الذين لم يضنّوا علينا بما جمعوهُ من الآثار الادبية والكنوز الدفينة لا ضاع أجر المحسنين

وفي هذا العصر قام بطريرك آخر من الروم جزيل الفضل شرَّف حلب وطنهُ بما

نشرهُ من المصنَّفات البديعة الّا وهو مكاريوس الحلبي المعروف بالزعيم وتولّى البطركيّة الانطاكيّة من سنة ١٦٤٣ الى ١٦٧٧ . وانفس ما خلّفهُ من التآليف تاريخ البطريركيّة الانطاكيّة الى زمانهِ وكتب طقسيّة كتعريب القنداق وشرح الطقوس وكتاب تاريخ من اوّل العالم الى قسطنطين منهُ نسخة لدى حضرة القس منش . وخصوصاً رحلتهُ الى القسطنطينيّة وبلغارية والفلاخ والبغدان وروسيّة من السنة ١٦٥٢ الى ١٦٥٥ كتبها ابنهُ الشمّاس بولس الزعيم فنُشرت بالطبع مرّتين في لندن وبطرسبرج مع ترجمتها الانكليزيّة والروسيّة . وهو تأليف جليل طُبع على نسخة وجدت في حلب ولعلّهُ يوجد منهُ نسخة اخرى في الدار الاسقفيّة للروم الارثدكس لكنّهُ لم يمكنّا ان نتحقّق الامر اذ لم يُسمح لنا بالدخول الى مكتبتها

وهذه الرحلة تذكّرني برحلة أُخرى باشرنا حديثاً بنشرها كُتبت بعد رحلة مكاريوس بعشرين سنة وهي وان لم تكن لاحد الحلبيين الّا اننا وجدناها في حلب في مكتبة الطائفة السريانيّة فرخّص لنا سيادة مطرانها الجزيل الاحترام بنشرها . وهي لكاهن كلداني يُدعى الياس البغدادي من بيت عنّون وصف بها سفرهُ الى اميركة وصفاً دقيقاً وهو اوّل شرقيّ دخل تلك البلاد القاصية

وفي هذا العصر اشتهر احد ادباء الموارنة في حلب نزيد بهِ الشيخ ابا المواهب يعقوب بن نعمة الله بن ابي الغيث الدبسي كان متضلّعاً بعلوم العرب من معاني وبيان وبديع ولغة وادب وعليهِ درس هذه العلوم السيّد جرمانوس فرحات . ومن كتبهِ تعريبُ الاناجيل الاربعة منها نسخة في مكتبتنا الشرقية وفي مكتبة حلب المارونيّة تاريخها سنة ١٦٩٤ وفي مقدّمة الكتاب يُدعى صاحبها « شيخاً محقّقاً واماماً مدقّقاً فريد دهرهِ ونتيجة عصرهِ »

ومن ساعد من الموارنة على النهضة الادبيّة في حلب في ذلك الوقت معلّم آخر للطيّب الذكر جرمانوس فرحات وهو الخوري بطرس التولوي فانهُ وان لم يكن حلبيّ المولد لكنّهُ قضى في حلب معظم زمان حياتهِ وعاش الى اواسط القرن الثامن عشر ساعياً بنشاط في خدمة الدين والآداب ولحضرة الاب جرجس منش فضلٌ طويل في اعمالهِ المبرورة ومصنّفاتهِ المشهورة التي تبلغ العشرين عدًّا دُوّن جدولها في السنة السادسة للمشرق

وفي اواسط القرن السابع عشر كان رجوع كثير من اليعاقبة الى الحظيرة

البطرسيَّة فاقامت رومية عليهم بطريركاً اندراوس الخيجان احد تلامذة رومية وكان عالماً لكثير من اللغات السامية ومن آثاره ما نقَّحهُ من الكتب الطقسيَّة ومنها ردُّهُ على الكلوينيين بخصوص سرّ الافخارستيا . ومِمَّن خدموا وقتئذٍ الآداب العربيَّة في الشهباء من السريان رزق الله بن امين شاه مطران حلب الذي فتح مدرسة وعلَّم فيها الصرف والنحو . وكذلك علَّم في حلب يشوع بن عبد الاحد مطران اورشليم سنة ١٦٧٨ ايام تطاول اليعاقبة على الكاثوليكيين . وعاصر هذين الاسقفين المطران اسحق ابن جُبَيْر الموصلي نزيل حلب ولهُ تصانيف في السريانية والعربيَّة منها كتاب عظات دعاهُ كتاب العلل لدفع الملل وكتاب مدرك النجاة في صدق البيعة المصطفاة ورسالة لاهوتيَّة في تعليم الكنيسة بخصوص طبيعتي المسيح وقد استخرج الخلاصة اللاهوتيَّة لمار توما الاكويني . ولا يُعرف ما جرى بترجمته . وكذلك وجدنا في بغداد شرحاً على الاجرومية للقس نعمة قدسي الحلبي صنَّفهُ وهو في سجن آمِّد ومن شرحه هذا نسخةٌ في مكتبتنا الشرقية اهدانا اياها حضرة الاب انستاس الكرملي في بغداد

وفي هذا القرن السابع عشر اخذ مرسلو حلب اللاتينيُّون في التأليف بالعربيَّة فانَّ في مكاتب حلب المختلفة وفي مكتبتنا الشرقيَّة في بيروت وفي بعض مكاتب الخاصَّة نيفاً ومئة تأليف ترتقي الى هذا العهد قسمها الاكبر للآباء اليسوعيين نخصُّ منهم بالذكر الاب ارتوري شارح المزامير والاب ميخائيل نو والاب حبيب شيزو والاب يوسف بُسُّون وغيرهم والقسم الآخر للآباء الفرنسيسيين والكبوشيين والكرمليين فمنها ما هو معرَّب بقلمهم من لغات اوربيَّة شتَّى ومنها ما هو تأليفهم الخاصّ بالعربيَّة واذا قابلتها بتآليف غيرهم من النصارى الوطنيين لا تراها اقلَّ فصاحة ولعلَّهم استعانوا في تعريبها بادباء النصارى الوطنيين . واكثر هذه التآليف في مواضيع دينيَّة كاللاهوت والفلسفة وعلم الذمَّة والجدال والعبادات والمواعظ والتاريخ الكنسيّ . وبعضها في اللغة والاداب كمعاجم عربيَّة ولاتينيَّة او تركيَّة ايطالية وكاصول نحويَّة في اللاتينيَّة وغير ذلك ممَّا يشهد على همَّة المرسلين واشتغالهم بكل ما يؤول الى مجدهِ تعالى وخدمة كنيسته . هذا فضلاً عمَّا اخذتهُ يد الضياع من مصنَّفاتهم وهي تُعدّ بالمئين . فانَّ في رسائل اليسوعيين القديمة انَّ الاب شيزو اليسوعي الَّف هو وحدهُ او استخرج الى العربية مئتي كتاب

يتبع (لهُ بقيَّة)